

الاشتراكية والأدب

بقلم الدكتور لويس عوض . دار الاداب ، بيروت ، ١٩٦٣

سامت هذه النية او ضعفت .
ولست من مهمتنا ان نبعث عن التيات ،
ونحن بصدد كتاب « الاشتراكية والادب » ، لان
مؤلفه اولاً ، كاتب عودنا على الروح الموضوعية
في البحث ، ولانه ، ثانياً ، احد اولئك الرواد
الذين علمونا الشيء الكثير في الاشتراكية وفي
الادب وفيها معاً . لهذا يحسن بالناقد ان يقف
عند تسجيل الظاهرة الواحدة او الظواهر العديدة
دون ان يقول كلمته الاخيرة في تقييمها الا بعد
ان يستقبل انعكاسات الموقف الجديد للدكتور
عوض على تطبيقاته النقدية اللاحقة لكتابه
« الاشتراكية والادب » .

ولا شك انه يوجد بين مرحلتي التسجيل
والتقييم مرحلة وسطى هي التحليل ، وغاية ما
يمكن ان نقوله في هذه النقطة هو اننا سنقتصر في
محاولتنا استخلاص النتائج على واقع الكتاب من
جهة ، والتاريخ الادبي من جهة اخرى ، والموقف
الراهن للفكر العربي من جهة ثالثة .

يضع الدكتور لويس عوض تاريخ الفكر
الانساني في خانتين محدودتين هما المثالية والمادية ،
ثم يؤرخ لكافة المذاهب السابقة للاشتراكية
كنتاج طبيعي لمناهج الفكر المادي . وهو لا يقول
ذلك بشكل مباشر كما كان يقوله في الماضي بين
صفحات مقدماته لكتبه ، وانما هو يسلك الآن
طريقاً غير مباشر في تصنيف الفكر العالمي :
فالمدارس العقلية والوجودية وغيرها من اتجاهات

في جميع البلدان التي يسودها الاضطراب
الحضاري ، تنمو وترعرع دعوات الحياذ الفكري
والسياسي ، كمحاولة للتعرف على الذات المفقودة
وسط التيارات العالمية المتزاحمة على كوكبنا . ولم
تنتج المنطقة العربية من مرحلة الاضطرابات هذه ،
بل ربما عانت ويلاتها اكثر من اي جزء آخر في
عالمنا . ذلك ان العلاقة بيننا وبين اوربا لم تكن
يوماً علاقة الند للند ، اذا استثنينا بالطبع تلك
المرحلة التي كانت فيها الامة العربية في مستوى
المطاء العظيم فانقذت اوربا والعالم من وهاد القرون
الوسطى . على ان تلك المرحلة لا تقاس بالتاريخ
الانساني في مداه البعيد ، حيث لم تقف يوماً
جنباً الى جنب اوربا دون زيادة او نقصان .

ولقد نشأ من ذلك الكثير من العقد ومركات
النقص التي لا تقبلور فينا عادة كافراد ، وانما
كمجتمع وحضارة . ومن صميم هذه العقد ما
يتوهمه بعضنا من « شمولية » اذا جمع بين النقااض
والمفارقات ، معتقداً انه بذلك يجمع بين الشرق
والغرب ، وبين الشمال والجنوب ، وبين اليسار
واليمن ، وبين السماء والارض على صعيد واحد ،
هو صعيد الكمال التام والرسالة الانسانية العليا .
والحق ان هذه المحاولة ليست شيئاً جديداً على اي
من مجالات الفكر والحياة ، اذ هي لا تعدو
كونها مجرد « حلول وسطية » يلجأ اليها الانسان
الشديد الحيرة والاضطراب اذا حسنت نيته ، كما
يلجأ اليها الانسان بوازع من موقف انتهازي اذا

والحلول الوسطية في مجال المعرفة ، اما انها تلغي الفكرتين وتنكرهما ما ، واما انها تجمع بينهما في وقت واحد (والفريق الاخير يزعم انه يجمع بين الجوانب الايجابية في الفكرتين) . وينتمي المؤلف الى هذا الفريق الاخير ، فهو كباحث في الادب لا يرفض المدارس المثالية ولا ينكر المدارس المادية ، وانما يصوغ من هذه وتلك ما يتوهم انه مدرسة جديدة تطل من عليائها على البشر اجمعين في الشرق والغرب لتوحد بين قلوبهم في بوتقة الانسانية الحلصة من ادران المثالية والمادية على السواء .

ان وهم الباحث بان هذا الاتجاه الجامع المانع - مهما اذكر ذلك مراراً - هو المدرسة الادبية النقية من شوائب الاقدمين والمحدثين ، اليسار واليمين ، ووهه الآخر بان تجربة اجتماعية في بلد ما يمكن ان تقود الانسانية جمعاء ، هو رد فعل طبيعي لموقف الحضاري المضطرب في هذه المنطقة من ناحية ، ولانعدام اصلتنا النظرية من الافكار الكبرى القائدة في عصرنا من ناحية اخرى ، ولغلب التكافؤ العادل بين الغرب وبيننا في التاريخ القريب المشترك من ناحية ثالثة .
النقاء الحقيقي والريادة الحقيقية كما اعرقهما هما الاحابة على هذا السؤال : لماذا نصر على ذلك التصنيف المتصف للفكر : اليسار واليمين ، المادية والمثالية ، الخ ، ونجعل منه نقطة الانطلاق في محاولتنا الدؤوبة المثيرة للبحث عن الذات ؟ بل اذا كانت هذا التصنيف صحيحاً ، ولم نرفقه ما يعبر عن خصائص ذاتنا الفكرية ، لماذا نلجأ الى الحلول الوسطية سواء بالاعتراف او بالانكار ؟ لماذا لا نبحث عن شيء جديد لا هو باليسار ولا باليمين ولا هو بالمادي او المثالي ؟ اجل ، ينبغي ان نستفيد من التراث ، ولكن لا ينبغي ايضاً ان نقول الافادة الى مفامرات في التسلق ، فنسرع الى « حاصل الجمع » بين الجوانب الايجابية ، او نطمئن الى رفض كل شيء ا كلا الموقفين حل وسطي حاطي . تماماً . والخطأ هنا ليس الطرف

الفكر البرجوازي هي معادية بطبيعتها للفكرة الاشتراكية ، ومع ذلك فهو لا يعلن صراحة ان هذه الفكرة ابنة المنهج المادي في المعرفة ، لانه يعلم ان الكثير من اتجاهات الاشتراكية السابقة للماركسية قد نبئت في احضان الفلسفات المثالية . كذلك فهو لا يعلن صراحة ان البرجوازية هي الام الشرعية للفكر المثالي ، لانه يعلم ان البرجوازية قد تبنت على طول تاريخها الكثير من الفلسفات المادية .

الا ان هذا التقسيم الذي يجيء به المؤلف لا يختلف كثيراً عن تقسيماته السابقة في مقدماته القديمة . وهو يدعو الموقف الجديد « بالاشتراكية الانسانية » التي تتعرف بجميع المتناقضات وتتجاوزها الى ما هو اعظم ، الى انسانية الانسان ، هذه الانسانية التي لا علاقة لها بالصراع الطبقي او الطائفي او العنصري او اي صراع آخر لانها الجوهر الكامن في وحدة السماء والارض في كل واحد منسجم .

لست اشك لحظة في ان تاريخ الفكر الاشتراكي هو بنفسه تاريخ الفكرة « الانسانية » ، بمعنى انه لم يوجد مفكر اشتراكي قط لم يزعم ان اشتراكيته تهدف الى ان يسترد الانسان انسانيته . وبينما يتفق جميع الاشتراكيين في هذا الهدف ، يختلفون من حيث الوسائل القادرة على تحقيقه ، بل هم يختلفون ايضاً في تفسيره . فقوم يقولون بزوال الطبقات كطريق يؤدي الى انسانية لانسان ، وقوم يقولون بمحاربة واحدة تستظل بها الانسانية فتحافظ على جوهرها الروحي الاعلى ، وقوم يعودون بنا الى الغاية او الطبيعة لنسترد نقاءنا الاول ، ويتم ذلك اما في مجتمع شيوعي ، او في جمعيات تعاونية ، او في مدينة فاضلة ، او سواها . اي اننا لم نعرف قط دعوة اشتراكية لم تدع انها تستهدف انسانية الانسان ، ومن هنا لا يكون المؤلف قد اتى بمجديد من ناحية الهدف ، ولا يكون قد اتى شيئاً على الاطلاق من ناحية الوسيلة .

الدكتور للادب ما اذا كانت انسانية الادب تتعارض مع طبيعة الطبقة ، ام ان نظريته تشتمل عليها معاً .

والزاوية الاخرى في نظرية الماركسيين الى الفنون انها احد عناصر البناء القومي للمجتمع ، اذ هم يؤمنون بان الحضارة الانسانية في مجتمع ما تشتمل على عدة سفلية هي النظام الاقتصادي والاجتماعي والسياسي ، كما تشتمل على قمة علوية هي مجموعة القوانين والنظريات والقيم في الادب والفنون والقانون وغيرها ، وان هناك تفاعلاً جديلاً بين القمة والقاعدة هو مفتاح التغيير الحضاري في ذلك المجتمع . ومن هذه الزاوية كان الدكتور يستطيع ان يناقش مشكلة المشاكل ، اعني علاقة الفكر بالواقع ، فيبرز ما اذا كانت الواقعية الاشتراكية في ازمة ، وما هي ابعاد هذه الازمة ، وما صلتها بالنظام الاجتماعي القائم من ناحية - وبفلسفته من ناحية اخرى . ولكنني فوجئت بالدكتور عوض بقول انه لم يجد في تراث ماركس وانفلز ما يخص هذا الموضوع سوى متفرقات مبعثرة هنا وهناك ، واكتفى تبعاً لذلك بما قاله ماركس في « رسالة نقدية في الاقتصاد السياسي » ، بينما قد ترك لنا ماركس وانفلز معاً كتاباً ضخماً مشتركاً عنوانه « في الادب والفن » . ولقد تسببت هذه الظاهرة في الجانب التمييزي من منهج كتاب « الاشتراكية والادب » ان ظلم المؤلف الكثير من الاتجاهات الادبية ، وانتهج اسلوب الاطلاق والتعميم ، وابترس الكثير من المقدمات ، ليصل الى نتائج محدودة مسبقة .

نادية لويس

المقابل للصواب ، فهذا البتر الحاسم هو نتاج التصنيف المتعسف لكل شيء الى قسمين . اذاً فالحل الوسطي خاطيء بمعنى انه حل تسليفي ينشد الراحة والطمأنينة والاطلالة من اعلى ، بينما كنت اتوقع من لويس عوض ان يرود لنا بمجاهل الطريق بمبدأ عن التصنيف التقليدي البسيط الساذج للانسان . فالانسان قد اصبغ في غاية التعقيد على ضوء العلوم الحديثة التي لم نعد ازائها نستطيع ان نقسمه الى خير وشر .

واذا كانت هذه هي ملاحظاتي على الجانب الفكري من المنهج الذي اثره الدكتور عوض في كتابه ، فانه تبقى لي ملاحظة سريعة حول الجانب التمييزي لهذا المنهج . فني نقده للاتجاهات المادية والمثالية في الادب لاحظت انه يتكئ على بعض التعريفات المعجمية السريعة ، او على بعض الافعال المتفرقة لزعماء تلك الاتجاهات . وفي رأبي ان كتاباً صغيراً ككتاب « الاشتراكية والادب » لا يحتمل مطلقاً هذه المختارات ، وكان افضل ان يكتبها الباحث بتصوير الهيكل النظري للمدرسة التي ينقدها ، فيقول مثلاً ان الماركسية في الادب تؤمن بشيئين : اولها الطبيعة التطبيقية للادب ، بمعنى ان الفنون جميعها انعكاسات معنوية للطبقات المختلفة ، اذ لكل طبقة عند الماركسيين قيمتها وفنونها ومثلها ، ولهذا ليس هناك صراع طبقي بالمعنى الاجتماعي او الاقتصادي او السياسي فحسب ، بل هناك صراع فكري بين الطبقات . ولذلك وجد الادب الاقطاعي والادب البرجوازي والادب الاشتراكي . وفي حدود هذه الزاوية كان الناقد يستطيع ان يناقش انسانية الادب في بعدهما الطبقي ، فنحن لم ندرك قط من نظرية